

دلائل الإعجاز

واعلم° أني لستُ أقول إن الفِكَر لا يتعلّق بمعاني الكلم المفردة أصلاً ولكني أقولُ
إنه لا يتعلّق بها مجردةً من معاني النحو ومنطوقاً بها على وجهٍ لا يتأتّى معه
تقديرُ معاني النحو وتوضّيحها فيها كالذي أريتُك . وإلا فإنّك إذا فكّرتَ في الفعلين
أو الاسمين تريدُ أن تخبرَ بأحدِهما عن الشيء أيّهما أولى أن تُخبرَ به عنه وأشبهُ
بغرضك مثل أن تنظرَ أيّهما أمْدَحُ وأدمّ أو فكّرتَ في الشيئين تريدُ أن تشبّه
الشيءَ بأحدِهما أيّهما أشبهُ به كنتَ قد فكّرتَ في معاني أنفسِ الكلم . إلا أن
فكرك ذلك لم يكن إلاّ من بعد أن توضّيتَ فيها من معاني النحو وهو أن أردتَ جعلَ الاسم
الذي فكّرتَ فيه خبراً عن شيءٍ أردتَ فيه مدحاً أو ذماً أو تشبيهاً أو غيرَ ذلك من
الأغراض . ولم تجءْ إلى فعل أو اسم فكّرتَ فيه فرداً ومن غير أن كان لك قَصْدُ
أن تجعلَه خبراً أو غيرَ خبرٍ فاعرِفْ ذلك . وإن أردتَ مثلاً فخذ بيتَ بشار - الطويل
: -

(كأن مُثَارَ الذَّقَعِ فَوْقَ رُؤُسنا ... وأَسْيافَنا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ) .
وانظرْ هل يتصورُ أن يكون بشارُ قد أخطرَ معاني هذا الكلم بباله أفراداً عاريةً من
معاني النحو التي تراها فيها وأن يكونَ قد وقّع " كأن " : في نفسه من غير أن يكونَ
قَصْدَ إيقاعَ التشبيه منه على شيء وأن يكونَ فكّر في " مُثَار النقع " من غير أن
يكونَ أرادَ إضافةَ الأول إلى الثاني وفكّر في " فوق رؤُسنا " من غير أن يكون قد
أرادَ أن يضيفَ " فوق " إلى الرؤوس وفي الأسياف من دون أن يكونَ أرادَ عطفَها بالواو
على " مثار " وفي الواو من دون أن يكونَ أرادَ العطف بها وأن يكون ذلك فكّر في "
اللايل " من دون أن يكونَ أرادَ أن يجعلَه خبراً لكأن وفي " تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ "
من دون أن يكون أرادَ أن يجعلَ تهاوى فعلاً للكواكب ثم يجعل الجملةَ صفةً لليل ليتمّ
الذي أراد من التشبيه أم لم تخطُرْ هذه الأشياءُ بباله إلاّ مُراداً فيه هذه الأحكامُ
والمعاني التي تراها فيها .

وليت شعري كي يتصورُ وقوعُ قَصْدٍ منك إلى معنى كلمةٍ من دون أن تريدَ تعليقَها